جامعة تلمسان

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية

قسم العلوم الاجتماعية

شعبة علم الاجتماع

السنة الثانية –ليسانس-

مقياس علم الاجتماع في الجزائر-السداسي الثاني-

المحور الثاني: أهم القضايا والإشكالات السوسيولوجية في الجزائر

المحاضرة الثامنة: **الحداثة والتقاليدانية في المجتمع الجزائري**

تظهر الحداثة كفكرة وفلسفة ومذهب وإيديولوجية كمرادف للكوني بمبادئه العالمية من حرية، مساواة ,عقلنة، سيادة القانون الوضعي، اللاديني... إلخ، في هذا الصدد يتحدث **ألان توران** عن الحداثة الغربية ويعرفها كما يلي: هي تجاوز الذاتية، التقاليد والمعتقدات وهذا بخضوعها إلى المبادئ العالمية للتفكير, تتميز بعظمة المصلحة المبنية على الحساب العقلاني في السوق، سيادة القانون المطبق على الجميع بدون استثناء وبالحرية وحقوق الإنسان" وفي السياق نفسه يشير **بوزيدة عبد الرحمان** إلى أن الحداثة برزت كمفهوم مستقل مع الفكر التنويري ظهرت في بدايتها كدعوة للعقل والحرية تقوم على فهم ساذج للفرد والمجتمع يفترض بروز الفرد الحر في إطار الدولة الأمة القائمة على المواطنة والديمقراطية في إطار تصنيع وتشريع قائم على العقل ثم تطور هذا الفهم الأول إلى تنظير وفلسفة اكتملت في شكلها الكلاسيكي مع كانط وهيجل، أي فلسفة الذات الغربية.

بالنسبة للوجه المقابل للحداثة أي التقاليدانية فإن المسألة الجوهرية تظهر في المعنى الذي نطلقه عليها ، فمن جهة ترتبط هذه الأخيرة مع الوزن المعطى للبنية الاجتماعية المحلية بكل خصائصها وتجلياتها والمستوحاة من الجذور التاريخية للمجتمع الجزائري تتنافى من حيث الجوهر مع ما قيل عن الحداثة آنفا لكنها أصيلة ومتجذرة ولها تأثير على طبيعة الروابط الاجتماعية السائدة بين الأفراد في الواقع، بل أكثر من هذا فإن لها وزن قوي في المخيال الاجتماعي وفي بعد الذاكرة الجماعية وهي الفكرة التي تحدث عنها الباحث **عدي الهواري** بخصوص استمرار وتغير الثقافة البتراركية عند حديثه عن العائلة والرباط الاجتماعي في المجتمع الجزائري .

لكن المسألة بخصوص هذا المفهوم لا تتوقف عند هذا الحد، بل تمتد إلى تحليل ممارساتنا وتصوراتنا اليومية بالإضافة إلى طريقة فهمنا وموقفنا من الأحداث التي نجابهها أو التي تحيط بنا. كالمبالغة في الإيمان بالقضاء والقدر إلى الحد الذي نفسر به كل ما يعترضنا من أزمات ومخاطر مختلفة.

عند الحديث عن المجتمع الجزائري بخصوص الحداثة فإن المسألة تصبح معقدة من الناحية الابستمولوجية وتترجم بعدة تساؤلات: هل المجتمع الجزائري مجتمع حداثي اليوم أم لازال تقليدانيا؟ هل هو في طريقه إلى الحداثة بالمفهوم الغربي أم أنها حداثة محلية؟ هل التقليدي قادر على استيعاب الحداثي الغربي؟ ؟ ألا يمكن لهذه الجدلية أن تدخل المجتمع الجزائري في أزمة معيارية؟ ..الخ.

عندما نحوصل معرفيا ما أنتج حول جدلية الحداثي والتقليداني في الأدبيات السوسيولوجية المحلية باعتبارها أطروحات أو على الأقل فرضيات والتي تعكس اختلاف وجهات النظر والتحليل حول طبيعة الرباط الاجتماعي في الجزائر، فأنه يمكن تصنيفها في أربع خانات هي:

1-**الأطروحة الحداثية**: إن مثاقفة الجزائريين تسير بخطى ثابتة إلى الأمام وهي واقع ناتج عن امتزاجا آثار الماضي بنتاجات الحاضر فهي نتاج التفكيك الاجتماعي والثقافي الناجم عن الاستعمار وأيضا عن إعادة الهيكلة-البناء- التي بادرت بها الدولة –الجهاز-غداة الاستقلال، وهنا يجب الأخذ في الحسبان كامل سيرورة-فردنة الفرد الجزائري وأشكال الاجتماع البشري الجزائري الناجمة عن أكثر من أربعين سنة من الاستقلال، لهذا السبب يطرح الباحث **مزوار بلخضر** بديلا من خلال تثمين طرح الحداثة الجزائرية للمجتمع الجزائري مؤيدا في ذلك أفكار الباحث **عبد القادر جغلول** من خلال نصين له وهما :الأول هي مداخلة ألقاها في نوفمبر 1997م ونشرت في سنة 2000م في مجلة دفاتر في قسم علم الاجتماع بجامعة الجزائر والموسومة ب –عندما تخترعن الجزائريات حداثتهن ، أما النص الثاني فهو منشور في سنة 2004م في صحيفة لوكوتديان وهران- بعنوان المثقف المغاربي في مواجهة مفارقات مجاله السوسيو- ثقافي في خضم الحداثة الجديدة وهذا ما يبين اهتمام جغلول بنوعية الرابط الاجتماعي في الجزائر ،فمن خلال قراءة النصين يتبين أن المجتمعات الأوروبية لا تحتكر الحداثة لنفسها بل أن الأطروحات الأخرى لم تنفصل عن النزعة المركزية الأوروبية فهي لم تستطع أن تنفصل عن الحضور القوي والمرجعية المتمثلة في الحداثة الأوروبية بشكل ضمني أكيد وفي غفلة عن هؤلاء الباحثين أنفسهم فحداثة المجتمع الجزائري حسب جغلول مختلفة وتعرف بشكل مختلف فهي حداثة حاضرة وموجودة هنا وسوف تأتي كذلك لا محالة كأنها حداثة جديدة مختلفة لا يمكن مقارنتها بالحداثة الكلاسيكية الغربية ،فالجزائريون والجزائريات انجرفوا في ديناميكية أصيلة غير مسبوقة حيث يمتزج الحقل الأنثربولوجي المغاربي مع الحداثة الأوروبية في سيرورة لا تذهب في نفس اتجاه ما يحدث في أوروبا، أي هيمنة أسطورة الفرد الشاب، الجميل ، الميسور ماديا ، والمتحرر من أي ارتباط ديني أو جنسي ا واو اثني آو جغرافي ..الخ. لقد وضع الباحث أصبعه على هذه الحداثة المنفردة أين تساهم عدة عوامل في تشكيلها مثل :التحضر السريع،توسع العمل المأجور،ترقية المرأة،خاصة من طرف التمدرس. أما بخصوص النساء الجزائريات ينكر جغلول تصنيفهن القائم على التعارض بين المتحجبات المحافظات والمتبرجات التقدميات فالغيرية الثقافية بين المعسكرين خاطئة ومضللة وحتى يدعم موقفه يستند إلى دراسة أجريت سنة 1994م من طرف طالبتين هما :جيجيغة عماش و وايناس نور تحت عنوان-الجزائريات بين الإسلام والاسلاموية، يظهر انفتاحهما على الحداثة بغض النظر عن التبرج أو التحجب الذي لم يؤثر في موقفهما، فالمجتمع الجزائري حداثي لكن بألوان محلية وهذا الشكل في البحث عن الحداثة ليس خاصية جزائرية بل نجده كذلك لدى المسلمات الأوروبيات كما أشارت في ذلك الباحثة نادين ويبيل التي تصف نساء متحررات ومتحجبات في آن واحد فتقول عنهن: مستنكرات بنفس الطريقة كل ما هو معرف على أنه تجاوز من طرف الحداثة الغربية، تختار هؤلاء المسلمات طريقا وسطيا حيث تتخلصن من سلطان الرجال للخضوع فقط لسلطان الله...هذه المسيرة التي تشير إلى التحرر تبتكر حداثة حيث يحضر كذلك المقدس.

2-**أطروحة التقاطب الثقافي**: شهد المجتمع الجزائري تحولات عميقة في ظرف وجيز وأنه يتبع مسار المجتمعات الحداثية منذ الحقبة الاستعمارية فالرباط الاجتماعي وان لم يكن حداثيا بالكامل فهو في طور التحديث نظرا لمقاومة الثقافة التقليدانية وبهذا فالمجتمع الجزائري حداثي وتقليدي في نفس الوقت. يتراوح الفرد الجزائري بين الأصالة والمعاصرة عن طريق مزاوجة لنظامين مختلفين بل ومتناقضين في نظام واحد، الأمر الذي يجعل من الصعب اختيار نموذج واحد بشكل نهائي وقطعي وفي كتابه الجزائر الأمة والمجتمع يرى **مصطفى الأشرف** أن الجزائريين من الناحية الثقافية معرضين لازدواجية من المستحيلات فيوجد استحالة العودة إلى الماضي واستحالة الحضور في زمن التقدم ، أما المصري **نجيب محفوظ** فهو يتكلم عن انقسام الشخصية لساكن القاهرة أين نجد نصفه، يؤمن ، يصلي، يصوم ويذهب إلى الحج أما النصف الثاني فيضرب في العمق القيم الصفرية في البنوك ، أمام المحاكم،في الشارع،في قاعات السينما والمسرح وأمام التلفزيون اما بالنسبة للباحث **مالك شبل** فهو يتحدث عن الشيزوفرينية الجزائرية في الوقت الذي يتكلم فيه **محمد عابد الجابري** عن انشطار الإنسان العربي. نجد أكثر المدافعين عن هذا الطرح هو الباحث **نور الدين طوالبي** حيث ينطلق من فرضية أن المجتمع الجزائري يسخر الثقافة الأصلية في ممارسة الطقوس المتفرعة في غالبيتها من الدين كي يزاوجها مع الثقافة الدخيلة –الحديثة- ،ففي جل كتاباته يتناول ظاهرة التقاطب الثقافي وحسبه فان المجتمع الجزائري هجين بوجهين تقليدي وحداثي يتلازمان ولكن في الألم لأنهما متعارضان بصفة دائمة وبالتالي تظهر القيم بشكل متكافئ بين الحداثي والتقليداني ،يتبنى الجزائريون القيم التقليدية حتى لا يشعرون بالذنب أنهم فسحوا المجال للحداثة والتقاليد تظهر في بعض الوضعيات على إنها رد فعل أمام التغير الاجتماعي.

3-**أطروحة الثنائية الثقافية:**مفاد هذا الطرح أنالرباط الاجتماعييتميز بتعايش المرجعيتين التقليدية والحداثية معا، فالمجتمع الجزائري في جزء منه حداثي أما الجزء الآخر فهو تقليدي ويبدو أن برادغم الثائية قديم في الأدبيات السوسيولوجية الكلاسيكية، بل نعثر على بصمات هذه الثنائية بصورة جد حساسة في مجتمعات أخرى مثل : مصر الخديوي إسماعيل وفي النظام السياسي لتركيا الكمالية الذي لا يمكن آن يشتغل إلا بتهميش القاعدة الفلاحية من سيرورة التحديث.

من أبرز المدافعين عن هذا الطرح الباحث **جمال غريد** ففي كتابه الاستثناء الجزائري يشير إلى أن الدولة بتطبيقها لنموذج التصنيع ابتداءا من السبعينات إنما كانت تستهدف استدراك التأخر الاقتصادي مقارنة بالدول الغربية فاتجهت إلى التصنيع حتى تعمل على تثاقف الجزائريين بما يتطابق والنصوص الدستورية التي دعت إلى خلق إنسان جديد بل ومجتمع جديد بينما فشل نموذج التصنيع قادإلى تغير بسرعتين أدت إلى فجوة مجتمعية كبيرة بين قاعدة شعبية تقليدية وأخرى أقلية حداثية في المجتمع الواحد وهما متعارضتان ثقافيا ومنفصلتين عن بعضهما البعض، فهي جزائر لمجتمعين فعندما يعرف المجتمع التقليدي يستعمل صفة العروبي حيث يرفع كل التباس على الإسلام لأن هذا الأخير ما هو إلا مكون من مكونات النسق الثقافي المحلي ويمكن للعروبيين أن يتبنون الحداثة إلا في شكلها المادي والتقني فقط، إذ يرفضون العصرنة عندما يتعلق الأمر بالجانب الثقافي كنسق قيم .

في مقال مشترك بينهما يشير كل من **علي الكنز وعبد الناصر جابي** إلى انقسامية المجتمع الجزائري إلى قسمين هما: مجتمع العصرنة ومجتمع التهميش فالأول يغلب عليه الطابع النخبوي ذو الثقافة المفرنسة عموما والذي يرفع شعارات العصرنة والديمقراطية بل حتى العلمانية لدى بعضه، هذا المجتمع يتجسد تقريبا في المجتمع المدني كالمنظمات النقابية والمهنية والجمعيات النسوية المتعددة وهو مجتمع الفئات الوسطى المتحالفة والمرتبطة بالدولة والعملية الإنتاجية العصرية ،آما المجتمع الثاني فهو مجتمع التهميش يطلق على الأغلبية الساحقة من المجتمع الجزائري يضم من هم بحاجة إلى مساعدات اجتماعية-الشرائح الدنيا- إضافة إلى الفئات الوسطى في السنوات الأخيرة، يتكون عموما من الفئات البعيدة عن العملية الانتخابية-البطالين- ويضم حتى المبعدين من العملية الاستهلاكية والإنتاجية يعتمدون في جزء واسع منها على تجارة الترباندو فهو ذو طابع شعبي واسع ينسج خطاب ديني قيمي خاص.

4-**أطروحة الثقافة التقليدانية:** تجد هذه الأطروحة من يدافع عنها في مختلف الميادين مفادها أن المجتمع الجزائري عرف بعد الاستقلال عودة قوية للقيم التقليدية حيث ترسخ الرباط الاجتماعي في الثقافة التقليدية، أما التغيرات التي تحدث فهي جزئية ولا تدل على تغير جذري أي هي شكلية فقط. من أبرز المدافعين عن هذا الطرح نجد الباحث **أحمد العلاوي** من جامعة وهران في أطروحته أزمة إعادة إنتاج المجتمع التقليدي كما نجد بصمات هذا الطرح وبقوة في أفكار عالم النفس الاجتماعي **سليمان مظهر** الذي كتب في إحدى مؤلفاته على أن الثقافة التقليدية تسير المجتمع وهو يعرفها كمايلي: إنها عجز الأشخاص والشبكات العلاقاتية والجماعات على التحكم في وسائل معيشتهم وتنظيم مصيرهم حسب أهوائهم وحاجاتهم وطموحاتهم . معنى ذلك أن الأشخاص يبتعدون عن اقتحام الفضاء والمحيط الخارجي الذي يعد السمة الأساسية للحداثة فنراهم يتكيفون مع الأوضاع بغية التحقيق الآني للمصالح الشخصية أي انتهاز الفرص أما البعد الثاني فهو يتمثل في فكرة المساواتية أو التساوي من الأسفل الذي يجابه التراتبية والتمايز الاجتماعي.

لكن حسب الباحث **مزوار بلخضر** فان هذا الطرح يطرح عدة تساؤلات من بينهما مفهوم الثقافة التقليدية والتي تشبه إلى حد ما مفهوم التخلف الذي وظفه الباحث **امحمد بوخبزة** في كتاباته وهو يشير إلى أن هذا الأخير يعني بالضبط وضعية مزمنة لعدم الرضا عن تلبية الحاجات الاجتماعية ،ـوما هو موقع التثاقف منذ الاحتلال الفرنسي وحتى بعد الاستقلال بالإضافة إلى الخلط بين التقليدي والغير متحضر . ألا يعكس هذا الأخير مغادرة التقاليدانية على أساس أنها معدل ومنظم للحياة الاجتماعية وهو تعبير عن انحطاط مؤسسات التنشئة الاجتماعية ، وفي السياق نفسه أشار **مالك بن نبي** إلى موقع الثقافة التقليدية بقوله إننا حافظنا على الشكل لكن فقدنا الجوهر، فاحتلال الشعب قد أدى إلى اهتزاز النموذج القديم في الحياة والإدارة الكولنيالية انتزعت وبدقة الثقافة العربية الإسلامية.

**للاطلاع أكثر، أنظر المراجع الآتية:**

**1-**علي الكنز وعبد الناصر جابي:الجزائر في البحث عن كتلة اجتماعية جديدة، في مؤلف جماعي-ألازمة الجزائرية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999م.

2-بشير محمد: علماء اجتماع التنظيمات والعمل في الجزائر-الرعيل الأول- دار كنوز للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر، 2018م.

3-فريد مرحوم:المواطنة والرباط الاجتماعي في المدينة الجزائرية، التفكير من خلال مصطلحي القطيعة والتواصل، مجلة الدفاتر الجزائرية، العدد التاسع، 2019م.

4-سليمان مظهر:علم النفس الاجتماعي-نظرية المواجهة النفسية الاجتماعية، مصدر المجابهة،دار تالة للنشر، الجزائر ، 2010م.

5-بوزيدة عبد الرحمان: المعاصرة والفعل الاجتماعي الاستراتيجي في الجزائر في كتاب جماعي-علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، تنسيق وتقديم عبد القادر لقجع،دار القصبة للنشر، الجزائر ، 2004م.

1-Belakhdar Mezouar : les sciences sociales en Algérie face au changement, revue insaniyat,n 57-58 juillet ,décembre,2012.

2-Guerid Djamel : l’exception Algérienne-la modernité à l’épreuve de la société ; édition casbah, Alger, 2007.

3-Dahmani Mohamed : modernité et aménagement de territoires in l’Algérie et la modernité-sous la direction de Ali el Kenz ; 2015